

أثر الشعر العربي في الحروب

للكنوز زكى المحاسنى

حين قرأت الإلياذة التى وضعها هوميروس قلت : « إن على حسام البطل أشيل نقش هوميروس آداب أمته » . ورحت أتقصى الملحمة العربية فلم أجدها على مثل ذلك الطراز من شعر اليونان فى الحروب ، وفكرت فى حماسة الجاهلية ، وانطبأع العرب على الحرب ولغتهم الحربية فوجدتهم أمة حرب ونضال . ففى متطاوول غزواتهم الصغيرة بين القبائل ، والبطون وفى حروبهم الكبيرة التى كانوا يسمونها أياماً كحرب داحس والغبراء وحرب البسوس - وكانت تدوم السنين - كان لهم فيها شعر سجلوا فيه وقائعهم ، وصوروا آثار حماسهم التى كانت محالاً للفخر ، وسبيلاً إلى تعداد الشواهد الباقية فى العزة والمجد . وكان شأنهم فى ذلك شأن الأمم القديمة كاليونان والفرس . غير أن هؤلاء أثروا الملاحم لطول أنفاسهم ، وصبر شعرائهم ، وسعة قوافيهم . وأثر العرب فى الجاهلية المقطعات والقصائد القصار فى شعر الحرب ، استجابة لسجاياهم التى كانت لا تستطيع غير ذلك .

غير أن الحياة الأموية الجديدة قد اقتضت شعر الحرب أن يكون من مقوماتها الكبرى ، ومياسمها الاجتماعية والسياسية . فكان على شعر الحرب فى هذا العصر أن ينهض بما تقتضيه الحروب الكثيرة المنتظمة ، وسط حياة متحضرة ، وشعر متطور ، وسياسة معقدة ، وفتوح تتأزم فى الشرق والغرب وفتن تعج فى الباطن . وكأن القرائح الفذة فى العصر الأموى قد تدفقت فى هذا الضرب من الشعر الحماسى المحتوم ، الذى كان مناط الفحولة ومعقد الجزالة فشاعت حماسه فى الفخر والهجاء ودعايات السياسة وذكر الحروب ، وما كان يخلو شعرهم من خماسة حتى فى زحام الهوى ، ووصف آيات الجمال .

كانت الحماسة الأموية صدى المجتمع وبوقه ، ومن ههنا نشأ شعراء الأحزاب ، وموضوع الشعر الحربى فى عصر الأمويين يكاد يعرف بنفسه

موقعة الحمل ، ويوم تحكيم انصاحف مشرعة بها رؤوس الرماح ، وما جرت حرب على ومعاوية ؛ وثورات الخوارج والشيعية ، وعداوات آل الزبير وحروب الأمويين في الشرق بخراسان وما وراء النهر ، وفي الغرب على حدود الروم ، وتمدح الشعراء بالقواد وشجاعتهم ، وإشادتهم بالخلفاء والأمراء ، واشتباك كل ذلك ومضاعفاته ؛ كان مادة غنية لشعر الحرب في ذلك العصر . أذكر الأخطل ، وقد كان أعظم فروسية وحماسة في شعر الحرب لأنه عرفها وعركها وكان له يوم مشهود مع الحفاف القيسي في يوم البشر ، وما تبعه من أيام كيوم الثرثار ، ويوم الشرعية . وقال جرير غريمه شعراً حريياً كثيراً مزج فيه نفسه وسكب عليه جسده ، وكان صاحب حرب وجلاد ، وكفاه فخراً أن يشهد له الخوارج وهم في زحام القتال ، فلم تشغلهم المعركة عن أن يقرأوا أنه أشعر من صاحبه في وصف الحرب والبطولة . أما الفرزدق فلقد كان جباناً حقاً ، وكان شعره الحماسي ادعاء ، وكان معروفاً بالخوف ، حتى وصفه راوى نسخة ديوانه حبيب الأعرابي بقوله : (كان أجبن من الصافر) .

أما شعر الحرب الذي يشابه إلى حد قريب ملاحم الأمم القديمة كالليونان والهند فلم تكن معاملته واضحة إلا في العصر العباسي ، حين استطاع الشعراء الكبار أمثال أبي تمام والبحتري والمتنبي أن يصورا المعارك في شعرهم .

ففي الشرق قامت أكبر فتنة في العصر العباسي ؛ وهي فتنة بابك الخرمي . وقد حفظ شعر الحرب صور هذه الفتنة ، التي أعجزت المأمون والمعتصم حتى استطاع الأفشين كبير قواد المعتصم أن يأتي ببابك مقيداً مصفوداً وأن يشهد صلبه . وكان تصوير أبي تمام لذلك رائعاً . وكما نهض إمام الشعراء أبو تمام بوصف فتنة بابك في الجهة الشرقية بقصائد مطولة من شعره الخالد الرصين ، فكذلك أعطى الأدب العربي منحة لا تبلى في وصف الحروب العباسية في الجهة الغربية .

ولقد استطاع الباحث المستشرق اسكندر فاسيلييف الروسي أن يكشف عن أمور لم ترد في كتب العرب من وصف الحروب بينهم وبين البيزنطيين ، وكانت مجموعة كتب غوستاف شلمبرجة الفرنسي - الذي وهب عمره وشيخوخته

للكلام على التاريخ البيزنطى والحضارة البيزنطية وعلاقة العرب بالبيزنطيين فى العصر العباسى فى مجلدات قسمها على سنين - أروع أثر فى هذا الموضوع ، وخاصة تاريخ الامبراطور البيزنطى فى القرن العاشر نيسيفور فوكاس . وفى هذه الكتب تجلت حقيقة الشعر العربى فى العصر العباسى الذى وصف أصحابه الحروب مع الروم وتوسعوا فى الكلام على المتنبى وعصر سيف الدولة والحمدانيين

إننا معشر العرب المعاصرين كنا نعلم ما جاء به مؤرخونا عنا ، لكن من يقرأ هذه الكتب ، التى ذكرتها لفاسيلييف وشلمبرجة وغيرهما من أمثال ديبل ورونسيان - وهم أعظم علماء التاريخ البيزنطى فى أواخر القرن التاسع عشر والعصر الحاضر - تنكشف له الخبائثات من تاريخنا الحربى ، ومن شعرنا الحماسى مثل الخبيثات من كنوز الفراعنة فى هذه الأرض المباركة التى كتبت هذا المقال تحت سمائها . فان هؤلاء المؤلفين نقلوا التاريخ البيزنطى الذى وضعه يوحنا الشماسى وسيدرينوس وكليكاس ، وكانوا من أفحل المؤرخين البيزنطيين ، عاشوا بين القرن العاشر والحادى عشر للميلاد . كتبوا تاريخ أمتهم ، وسجلوا فى هذا التاريخ الحروب التى جرت بين المأمون والمعتمد والواثق والمتوكل وسيف الدولة وبين الأباطرة البيزنطيين ميشل الثانى وتيوفيل وميشيل الثالث وقسطنطين الرابع ورومان الثانى ونيسيفور فوكاس وجان تريميسيس . وبضوء هذه المؤلفات أصبحنا نستطيع دراسة شعر الطائيين فى وصف الحروب التى قام بها القائد العربى الكبير أبوسعيد الثغرى . وبهذه الكتب عن التاريخ البيزنطى توضح أسماء الأماكن البيزنطية والحصون والثغور والأنهار التى ورد ذكرها فى الشعر الحماسى عند أبى تمام والبحترى وأبى الطيب وأبى فراس .

ولست أنسى تلك الفتاة الهاشمية التى كانت فى مدينة زبطرة Sozopetra عند هجمة البيزنطيين عليها فنادت : (وامعتصماه) : فلما بلغ نداؤها الخليفة العباسى ، وكان جالساً فى إيوانه على السرير ، نهض مستجيباً : لبيك ، لبيك أخت العرب . وانطلق بجيوشه الأربعة إلى أرض بيزنطة حتى هدم أنقرة ثم حاصر عمورية وفتحها . وقد كتب شعراء بيزنطة مرأى بلغ عددها الستين مرثاة فى شهدائهم بهذه الواقعة . كما جلا أبو تمام صورها الرائعة الأخاذة التى لا يلبسها

الزمان في قصيدته البائية؛ إذ صور هذا الفتح المبين في شعر عرضه في المعرض الحماسي المنقطع النظير .

كان أبو تمام والبحري يقصدان أبا سعيد الثغري في الثغور ويقدمان إليه مدحائهما الحماسية في وصف حروبه للروم وغزواته واحدة واحدة ، وينالان على ذلك أعطيته . وقد شهد معه أبو تمام حرباً ، وكذلك فعل البحري ووصفا ذلك بشعرهما الحماسي ، وقد بات لإسم أبي سعيد في ديار البيزنطيين كاسم الغول فصارت النساء البيزنطيات تخيف أولادهن الصغار به لئلا تنام وتهدأ عن البكاء إذا تمردت على الهدوء والنوم ، فقال البحري فيه :

لزعوا باسمك الصبي فعادات حركات البكاء منه سكونا
ربما وقعة شملت بها الروم فباتوا أذلة خاضعينا
قد أمنا أن يأمنوك على حال ولو صيروا النجوم حصونا

وكما كان شعر الحرب معنياً بوصف المعارك في البر ، فكذلك عند العرب في العصر العباسي كان لا يخلو من تصويرها في البحر . فلقد عرف العرب الحرب البحرية منذ أدرك عمر بن الخطاب عواقبها بعد أن خسر هرثمة الأندري مراكبه في بحر عمان . لقد أنكر عمر هذه الحرب التي لم يألفها العرب ، فكتب إلى معاوية ، وكان عاملاً له على الشام ، حين أراد غزو البيزنطيين في البحر :

« والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل في البحر مسلماً أبداً . وتالله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم » . لكن معاوية الداهية انتظر حتى صار الأمر إلى عثمان فأنزل في البحر أعظم عمارة بحرية . وقد كتب بفاتحة أسطوله العربي خاتمة الأسطول الروماني . وقد عني المستشرق الأستاذ ماريوس كنار بتتبع حركة الحرب البحرية عند العرب . وإنها لتحفة غالية تلك القصيدة الحماسية الرائعة التي وصف بها أبو عبادة البحري الحرب البحرية في أسطول المتوكل ، وكان أمير البحر على هذا الأسطول أحمد بن دينار بن عبدالله . وقد وجدت البيزنطيين كانوا يسمونه Apodynar وفيه يقول البحري : —

يا أحمد احمدنا الزمان وأسهمت لنا هضبات المطلب المتوعر
ولمسا تولى البحر بالخير صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر

وقد وصف البحترى ملحمة البحر عند قوله عن العرب وهم يرشقون
البيزنطيين أصحاب اللحي الشقراء بكرات فيها اللهب :

إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع إلا عن شواء مقتر
صدمت بهم صهب العثانين دونهم ضراب كلقاد اللظى المتسعر
يسوقون أسطولا كأن سفينه سحاب صيف من جهام ومطر
وكان البحترى بقصيدته الحربية البحرية هذه أعظم شاعر عربى قديم
وصف المعركة البحرية .

وحين أسس سيف الدولة دولته فى شمال سورية شغل بحرب البيزنطيين
طول حياته . وفيه يقول شاعره الأكبر أبو الطيب المتنبي الذى نجد فى ديوانه
سجلاً رائعاً لوصف البطولة الحمدانية :-

أنت طول الحياة للروم غاز ففى الوعد أن يكون قفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أى جانبيك تميل
وإن ساحة القول أمانى على شعر الحرب عند أبي الطيب المتنبي منبسطة .
نستطيع أن نخرج من شعر المتنبي ذكر معارك سيف الدولة معركة بعد معركة
ونستعين بالتاريخ البيزنطى على تحديد المواقع ، ومعركة القواد الروميين . فمعركة
خرشنة ومعركة الثغور ، والحدث الحمراء ، والدرب ، كل ذلك مواقع بين بيزنطة
والعرب فى العهد العباسى سجلها شعر المتنبي إنما تسجيل . وأكاد أعد كل ذلك
ملحمة مسردة متتابعة مع الشر العربى وأثره فى الحروب . وتكاد تكون قصائد
أبي الطيب فى وصف الحرب أعز ذخر عربى حماسى يضاهى ملحمة هوميروس
بل يزيد عليها فى توقد الحماسة ، وإن نقص فى الفن والتصوير والتنسيق ، فإن
كانت الحماسة بعثاً للشجاعة وتصويراً لها ويل البطولة ، فالمتنبي فيها أروع من
هوميروس ومن الفردوسى . لقد كان أبو الطيب فارساً وكان شجاعاً ، وكان
محارباً ، فوصف حروب سيف الدولة وقد شهد أكثرها كما يعترف بذلك التاريخ .
فأبو الطيب مناضل وصاحب ملحمة معاً ومن ههنا كانت حماسه أروع وأصدق .
أما هوميروس فلم يشهد حرب طروادة وإنما رواها ، وهو لم يصدق فيها كما
صدق أبو الطيب فى وصف الحرب ، فقد تخيلها ممزوجة بالخرافات والأساطير ،

فالآلهة وأنصاف الآلهة تحارب مع آشيل وبريام وهيكتور وأغاممنون وتتجلى
الحنينات الفاتنات لأندروماك الساحرة وهيلانة اللعوب .

قال الشريف الرضى فى المتنبي : وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر .
وكم وقفت طويلا على أبيات له فى سيف الدولة كانت مصداقاً لقول
الرضى قال فيها أبو الطيب واصفاً سيف الدولة بحروبه :

فبت ليالياً لا نوم فيها تخب بك المسومة العرب
يهز الجيش حولك جائيه كما نفضت جناحيها العقاب
وجيلا تغتذى ريح الموالى ويكفيها من الماء السراب

ولئن كان كلامى هذا على أثر الشعر العربى فى الحروب عند العرب
الأوائل ؛ فليت شعرى ما هو شعر الحرب عند العرب المعاصرين ؟ إني لن
أنقصهم حقهم فى هذا الشعر وإسهامهم فى قوله ؛ فان للبارودى قصائد
حماسية وقادة لاهية ؛ وصف فيها الحرب وما حبت فيها أرواح الحماسة
وعزمات النفوس . ولشوقي قصائد مطولة فى وصف حروب الترك وثورات البلقان
والفتح المبين الذى كان على يدى مصطفى كمال زعيم الترك ؛ وله القصائد الباقية
على وجه الدهر فى وصف الحركة الوطنية بمصر وجهاد الوطنيين والسياسيين .
ولا ننسى نحن السوريين ما سجل من مآثر حركاتنا الحماسية والوطنية فى طلب
الاستقلال والتخلص من مظالم المحتلين . وكان لحافظ ابراهيم حاسياته المشهورة .
ولكن أين كل هذا الشعر من الملحمة العربية التى ننتظرها والتى ما زال أدبنا
العربى مفتقراً إليها ؟ إن شعر الحرب وحده وهو منقطع الأسباب متناثر الحوادث
لا يستطيع أن يسد فى أدبنا العربى ثغرة الملحمة .

وانى وإن كنت أجد للعرب شعراً فى الحرب كثيراً - وأخبار الحرب طويلة
والحديث عنها يطول - فانما أجد خير شعر قالته العرب فى حروبها هو ما دعاها
إليه احتكاكها بغيرها من الأمم ، ومن ههنا يكون شعر الحرب الذى يعبر به الشعراء
عن خواطر الشعب بأسره فى المعركة والانتصار . فشعر العرب فى حروبهم مع
الروم منذ أيام المأمون إلى أواخر العهد الذى عاش فيه سيف الدولة هو المرحلة
الملحمية التى يصح أن تعبر عن شعر الحرب عند أمة العرب تعبيراً فنياً راقياً .

أما الشعر الذى قاله الشعراء فى الفتن الداخلية والقبلية فلا أعده من شعر الملاحم لنقص وصفه الشعبى .

وقد تفرد العرب فى شعرهم الحربى بما لم تشاركهم فيه الأمم المحاربة التى وصفت أبطالها ووقعاتها إلا فى القليل وهو عنايتهم الفائقة بوصف الخيل المحاربة ومناجاتها كما فعل عنزة حين قال :

وازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعيرة ونحمحم

ولم يخل شاعر عربى من قولة يقولها فى الخيل حين يمس الحرب بشعره وحق بذلك للعرب فقد كانت الخيل لديهم معقوداً بنواصيها المعارك والظفر فيها وظهرت عند أبى الطيب العناية بوصف الخيل المحاربة وتقصى أوصافها فى القتال .

وقد بت أسأل نفسى فى أعقاب هذا المقال أياظل الشعر منسكباً على وصف الحرب لدى الأمم حين تفتح ديوان فخارها ، أم يكتب للأثم سلام أبدي لا يعوز الشعر فيه صلصلة السلاح ولا دمدمة المدافع ، فان للشعر مادة ينضحها من الشعور ، وهل كان شئ أفزع للنفوس من الحرب وأكثر إثارة للأعصاب من ويلاتها ، إن الشعر وحي الانسانية ، وكلام الروح الصافية . وهو وإن سخره الشعراء للتعبير الحماسى فى وصف الحروب ، فان العالم المتخبط الذى يفقد حضارته بالحروب وكوارث القتال يتوق إلى الهدوء ويريد أن يكون الشعر نغماً له حنونا يهدد حياته بسلام . ولكن هيهات أن يتحقق هذا الحلم الأسمى ، فان غريزة الحروب فطرية فى الانسان ، ولدت معه منذ كان على الأرض ولا تزال ترافق كل مولود . وعدوان بعض الأمم على بعض هو دأب الخليقة فلنعد ما استطعنا من قوة لنواجه أعداءنا المتربصين بنا ، ولنرقب شاعرنا المنتظر الذى يصوغ لنا ملحمتنا فان الأمة العربية العتيقة لترصد اليوم نجماً يسطع فى سماء الشعر العربى يسجل صاحبه لها تاريخها الحماسى ، ومعاركها الحربية ، فى قصيدة جامعة كبرى على أناشيد متوالية يبدوها من فجر تاريخنا الحربى إلى يومنا هذا . وعندئذ تكون لنا ملحمة كاليادة هوميروس والشاهنامة والمهابارات أو كأنشودة رولان عند الغربيين نردد أبياتها لنوقد حماسنا ونجعلها تعويذة لأرواحنا الأبية ومروءاتنا

وبلسم الجراحات وحافراً لانبعاثنا بموج فيها بيان من روح الشاعر القديم الذي
يقول :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما
إذا ما أعرنا سيذاً من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلمما
فهل يساعف الزمن بشاعر تنتظره نهضتنا المعاصرة لينظم لنا الملحمة
المنشودة الحالدة ؟

زكى المحاسنى